مكتبة اهلية انشئت تحت وصاية وزارة الداخلية

كلفتها ١٣٨ مليون دينار وتقدم خدماتها مجاناً

عامر القيسي

قد يفكر المرء بإقامة مشروع خاص في اي من مجالات الحياة ويضع نصب عينيه طبعاً ، المردود المادي لمشروعه ، بما في ذلك الكثير من المشاريع التي تتصل بالثقافة وقنواتها المتعددة كدور النشر مثلاً. ولكن ان يكون المشروع مكتبة اهلية تصرف عليها الملايين وتقدم خدماتها مجاناً ، وتلاحقها عيون وتقارير اجهزة الامن ، في زمن سُفّهت فيه الثقافة. واهين اهلها ، فذلك يدعو إلى أكثر من سؤال واكثر من اضاءة.

مكتبة بوصاية وزارة الداخلية

على الشارع العام في منطقة السيدية، تواجهك قبة صغيرة خضراء، تطل من بين مجموعة بيوت وتضفي على المبنى الذي تعلوه ملمحاً تراثياً لكن اللوحة التعريفية الصغيرة المعلقة على جدران المبنى تبدد حيرتك لتخبرك بأن ما تراه هو (مكتبة الدكتور عباس كاظم مراد الاهلية العامة) وفي داخلها. تكتشف نكهة الماضي لم تكن في تلك القبة بل في محتوى الكتب التي تضمها هذه المكتبة.

وقصتها مع مؤسسها تتسم باللوعة والتحدي، لوعة التأسيس وتحد لسلطة لا ترهبها مثل هذه المشاريع فحسب، بل انها تؤشر تحت عنوانها عدة خطوط حمراء، لأن الثقافة في عرفها، يتوجب ان تخرج من بين اكمام السلطة، وكل ثقافة اخرى تكون مسورة، بالشك والريبة.

يقول عباس: في عام ٢٠٠١ قدمت طلباً لتأسيس هذه المكتبة، الى وزارة الاعلام، وكان الطلب غريباً على الوزارة.

فهذه سابقة لا عهد لهم بها، فرفض طلبي بحجة عدم وجود قانون يسمح بإقامة مثل هذه المشاريع.

❖ وماذا فعلت للحصول على الاجازة؟

– نقبت في القوانين العراقية الخاصة بمثل هذه المواضيع، وقدمت طلباً آخر ارفقت معه نسخة من قانون رقم (١) لسنة ١٩٩٦ وزارة الداخلية؟! وقد حصلت على الموافقة بشق الانفس، وتأسيساً عليه باشرت المكتبة تقديم خدماتها ابتداءاً من ٣ / ٥ / ٢٠٠١ .

تقارير امنية

❖ هل تعرضتم الى مضايقات اجهزة الدولة الامنية خصوصاً ان المكتبة تحت وصاية وزارة الداخلية؟

– الطريف في الامر هو ان احد اصدقائي، كان يبحث عن مصير اخيه الذي اعتقلته اجهزة الامن، وعن طريق العلاقات الخاصة، عثر لديهم على تقرير عن المكتبة بعنوان الدخول بلا نعال وهي حقيقة فعلى الباب علقت لافتة صغيرة (انزع نعليك قبل الدخول) لخلق جو من الهيبة والاحترام للكتاب.

واعتبر التقرير هذا الشرط مؤشراً على ان الموضوع اكبر من قضية مكتبة، وهو ربما يكون المكان تكية او مقراً لتنظيم سري. لكن الامر مر بسلام بعد العديد من الزيارات المفاجئة لهم، حتى خاب ظنهم وبقيت ابواب المكتبة مفتوحة لطلبة العلم والمعرفة.

❖ هل دعم مشروع المكتبة هذا افراد او مؤسسات اهلية او غيرها؟

– الحقيقة ان جهد انشاء المكتبة هو جهد فردي، وانطلاقاً من قناعة شخصية.

❖ الم يكن ذلك مكلفاً لجهد فردي؟

– نعم فقد بلغت اثمان تشييدها ارضاً وبناءً واثاثاً وكتباً ١٣٨ مليون دينار عراقي.

❖ والاهداف التي تتوخاها منها؟

– ان دخول الكتاب الحياة العامة للناس هو من مظاهر رقي الشعوب والامم، فهو النديم الذي لا يمل، والمطيع الذي لا يخالف والمحدث المريح، وهذا يعني ان لا غنى عنه لأي شعب ينشد التقدم والرقي. اذن هو هدف حضاري علمي وتربوي.

❖ ما طبيعة الكتب التي تحتويها المكتبة؟

– تضم مجاميع اغلبها في اللغة وعلومها وفنونها في التاريخ العام والخاص والمحلي للبلدات العراقية واخرى في الانساب وهي مجموعة ممتازة.

رواد من المحافظات

قمت بعدة زيارات للمكتبة بهدف الالتقاء برواداها ولكن حدث ان اغلقت المكتبة لأكثر من سبب يتعلق بالوضع الامني، مما حال دون تحقيق مثل هذا اللقاء، الا اننا اطلعنا على بطاقات الاستعارة الداخلية من المكتبة، وتبين ان الكثير من رواد المكتبة يأتون من محافظات العراق المختلفة، وهم تحديداً من طلبة الدراسات العليا والمؤلفين والباحثين والصحفيين، حسب ما اشارت عناوينهم واختصاصاتهم، كانت واحدة من الخدمات التي يستفيدون منها، هي ببلوغرافيا لصاحب المكتبة بجزئين (خرافة الاطاريح الجامعية المناقشة في المعاهد والكليات العربية) وهي تضم ثمانية آلاف عنوان، فلا يقع الباحث بخطأ تكرار عنوان رسالته مع رسائل اخرى مشابهة في الجامعات والمعاهد العراقية.

خدمات مجانية

واصلنا حديثنا مع د. عباس وسألناه:

❖ هل هناك نظام خاص بالتصنيف في المكتبة؟

– نعم. تتبع المكتبة نظام تصنيف بسيط يعتمد على الترتيب الهجائي، وفيها ثلاثة فهارس للعنوان وللمؤلف وللموضوعات.

❖ طبيعة الخدمات التي تقدمها؟

– الخدمات مجانية وتكون المطالعة فيها داخلية، ولا نسمح بالاستعارة الخارجية، ونستنسخ للطالب الباحث مجاناً بما لا يزيد على عشر صفحات في اي موضوع يريده.

❖ اثناء الحرب الاخيرة ، هل تعرضت المكتبة الى سلب او تدمير او ما شابه ذلك؟

– لم تتعرض المكتبة الى سلب ونهب بسبب ملاصقة بيتي لها، لكن الشظايا اصابتها وآثارها ماثلة حتى اليوم، وقد ذكر ذلك على احدى مواقع الانترنيت بعد ٧ / ٤ تحت عنوان (شظايا القنابل تصيب مكتبة اهلية في بغداد) .

اطلاق سراح الكتب!

يقول د. عباس عن الجديد الذي حصل في عمل المكتبة بعد سقوط النظام في ٩ / ٤ / ٢٠٠٣، اشياء كثيرة تغيرت، اولاً تخلصنا من الوصاية الغريبة لوزارة الداخلية، فلم نكن نستطيع ادخال اي عنوان جديد الى المكتبة دون موافقتهم، ثانياً المنوع اصبح مسموحاً، فأطلق سراح الكثير من الكتب التي كانت ممنوعة، ثالثاً حدثنا الكثير من الاصدارات حتى عام ٢٠٠٤، ورابعاً اصبح رواد المكتبة يأتون دون اي تخوف او تردد يسألون عن اي كتاب يشاؤون دون ان يلتفتوا خلفهم!!

❖ الا تفكرون في نشاطات اخرى في المكتبة غير التي ذكرتموها؟

– هناك برامج مستقبلية لعمل المكتبة، مثل اقامة معارض كتب متخصصة واصدار مجلة تعنى بشؤون الكتاب، واقامة مجلس ثقافي شهري لمناقشة القضايا الثقافية الاختصاصية.

❖ الا تعتقد بأن المكتبة بحاجة الى انواع مختلفة من الدعم لتفعيل دورها الثقافي والعلمي؟

– هناك نظام في المكتبة، يحفظ الكتب المهداة في خزانات مزججة تودع فيها هذه الكتب وبأسمائهم سواء من قبل الافراد او الاسر والمؤسسات. وبهذه المناسبة، فإني ادعو إلى دعم المكتبة بالكتب خصوصاً النادرة منها لدى الكثير من الاسر افضل من ان تهمل على ايدي الورثة الذين يعرضونها للبيع على الارصفة او تهرب الى خارج البلاد.واننا بدورنا ندعو وزارة الثقافة والمؤسسات المختصة في هذا المجال ، الى دعم مشروع المكتبة الاهلية الرائد والمساهمة في تطويره وتشجيع اقامة مثل هذه المشاريع خدمة لأهل الثقافة والكتاب.

صاحب المكتبة

– ولد بالكوفة عام ١٩٥٥ ,
– دكتوراه اولى/ كلية الآداب – جامعة بغداد عام ١٩٩٦ فقه اللغة العربية.
– دكتوراه ثانية/ معهد التاريخ العربي في الانساب.
–اصدر ١٦ كتاباً في التراث واللغة وتواريخ المدن.
– عميد معهد تطوير تدريس اللغة العربية.

تحت الضوء

طفولة مهمشة فقدت هويتها

نغم علي

كثيراً ما سئل فلاسفة وعباقرة وفنانون عن سر ابداعهم وما الذي اثر في نتاجهم الفكري والادبي والفني وكان الجواب واحداً: "انها مرحلة الطفولة" تلك المرحلة التي كانت بالنسبة لهم العالم السحري والحافز الذاتي الذي يمدهم بالالهام والجمال،ذلك العالم البلوري المذهل الضاج ببواكير الاشياء حيث يقبع التصور الاول في بطن ذاكرة تأبى ان تتنازل عما اختزلته من مشاهدات واحداث.

وكثيراً ما سمعنا ايضاً من افواه مجرمين كيف ان القسوة التي تعرضوا لها في مرحلة الطفولة وكذلك الحرمان كان لهما الاثر النفسي السيء في انزلاقهم وسقوطهم في هاوية الجريمة، وكم من اطفال امتلكوا مواهب وامكانات هائلة وئدت او اهملت لعدم وجود الرعاية والاهتمام.

ولطالما تناولت الدراما التلفزيونية والسينما العربية والعالمية قصصاً من هذه المواضيع لما تحتويه من مادة ثرية ذات طابع انساني كبير، تارة من باب الاثارة، والغرابة، وتارة اخرى من باب التحليل النفسي للشخصية مستندة في ذلك إلى نظريات علم النفس. الروائيون والقصاصون ايضاً كثيراً ما ولجوا الى دهاليز وخفايا هذا العالم فإتخذوا من هذه الحالات الارضية التي تمنح شخوصهم الواقعية وفق معالجات ابداعية وفنية وحاولوا ان يتلمسوا مفاتيحها بالرجوع الى المنابع الاولى التي تغذوا منها لكشف وتحليل سلوكها النفسي والذهني.

الاطفال في العراق يكبرون ويصيرون صبياناً دون ان يفهم احد كيف كبروا، الطفولة عندنا دائماً تأتي في آخر القائمة فأضاعت هويتها وغفت في دوامة من الاهمال واستيقظت على فواجع حروب كارثية قذفت بهم كأول ضحية لها، يبدأ هذا الاهمال من الاسرة ولا ينتهي الا بإهمال عام من قبل مؤسساتنا التربوية والصحية والاجتماعية.

ما عمق لدي هذا الاحساس مشاهد اتي الدائمة لبرنامج تلفزيوني خاص بالاطفال كان يقدمه الفنان دريد لحام الذي عينته الامم المتحدة سفيراً للطفولة في الشرق الاوسط منذ سنوات، نرى في هذا البرنامج اطفالاً عاصروا التطور والتكنولوجيا يتحدثون عن الكومبيوتر عن الاستنساخ البشري ومختلف المواضيع المحيطة بهم. تدغدغ احلامهم الوان قوس قزح الدافئة وتحلق بهم فراشات فوق لغة الكلمات يعيشون عمرهم ويمارسون براءتهم في جو صحي ديمقراطي ويحاولون تفسير الامور بمنطقهم الغريب بصدق وصراحة وفق رؤيتهم الخاصة تبدو لنا كأنهم اطفال من كوكب آخر.

نتمنى من مؤسساتنا التي لها صلة بعالم الطفل ان تتعامل مع احتياجاته المادية والحسية بمنتهى الجدية لعلها تتلافى اخطاء الماضي واهمال بعض الاسر وتحتضن كل ما يكفل له الحياة الاجتماعية السليمة وان تتبنى مشروع اطفال الشوارع ومتابعة حالات كهذه باتت تشكل ارقاماً مخيفة، ومحاولة انقاذهم واعادة تأهيلهم لكي تستقبلهم المدارس. يحز في النفس مشاهدة اطفال اغنى بلد في العالم من حيث الثروات الطبيعية يقضون صباحاتهم الناعمة في اعمال لا تمت لبراءتهم ونعومة اظفارهم بأية صلة بعد ان تسربوا من مدارسهم بسبب فقدان التوازن الاسري وما خلفته الحروب المتناسلة ومعاناة الحصار الطويل.

نريد ان ننشأ جيلاً نفتخر به بعد سنوات، ان تهيء مكتبات خاصة بالتلاميذ داخل المدارس، فبدلاً من دفعهم الى تنظيف صفوفهم يدخلون الى قاعاتها ليتعرفوا على الحياة من جانب آخر ولتتوطد ثقتهم بالكتاب، وتوعية الملاك التعليمي بكيفية التعامل مع التلاميذ بإنسانية ونبذ اسلوب الضرب وبناء صفوف اضافية لإستيعاب اكبر عدد منهم على ان لا يتجاوز ٢٥ تلميذاً في الصف الواحد بدلاً من ٤٠ او اكثر كأنهم مجرد بضاعة تكدس في مخازن لا تتوفر فيها شروط التخزين.

مكتبة التفكر في العمارة

سنوات من الخوف وكتب الاستنساخ

كتب دار المدى نفدت في اسبوعها الاول

محمد الحمراني
تصوير/ نزار سماري

في عقد التسعينيات.. ادى توقف بعض المكتبات الاهلية في العمارة الى جعل فرصة الاطلاع على عناوين جديدة فرصة نادرة للقارئ في مدينة العمارة.. خاصة ان اغلب المكتبات المتبقية بدأت تتخصص في بيع الصحف والقرطاسية. ولكن عام ١٩٩٧ شهد افتتاح مكتبة التفكر وعلى الرغم من انها لم تمنح اجازة استمر صاحبها (علاء محمد هاشم بسام) ببيع الكتب المختلفة الى ان حصل على اجازة بعد ثلاث سنوات تقريباً ، لتصبح هذه المكتبة من اكثر المكتبات ترويجاً للكتب المناهضة لسياسة النظام السابق.

قاعة صغيرة

صاحب المكتبة (علاء هاشم بسام) تأثر في طفولته بمعلم اللغة العربية في مدرسة الوثبة الابتدائية الذي اصبح فيما بعد روائياً شهيراً وهو الاستاذ (عبد الرزاق المطلبي) وكذلك بوالده الذي كان يعمل امين اً للمخازن في مديرية تربية ميسان ومن خلال مكتبته الموسوعية قرأ كتباً كثيرة وكان يحلم دائماً بإفتتاح مكتبة، وتحقق هذا الحلم حين قام احد اصحاب الفنادق الشهيرة بتحويل فندقه الى سوق صغير، اطلق عليه فيما بعد (سوق بغداد) وفي هذا السوق حصل (علاء بسام) على قاعة صغيرة كانت هي النواة الاولى لمكتبة التفكر، اعتمدت هذه المكتبة في الحصول على مصادرها من ثلاث محافظات وهي النجف وبغداد وكربلاء وكانت اغلب هذه الكتب ذات طابع ديني، لأن سياسة نظام صدام كانت قد غيبت الكثير من الكتب الدينية، خاصة تلك التي كتبها مراجع الشيعة، وبعد ثلاث سنوات من افتتاح مكتبة التفكر بدأ يتردد عليها احد المنتسبين التابعين الى مديرية امن ميسان الذي اخبر (علاء بسام) بأن مكتبته ستغلق في حالة عدم حصولها على موافقة امنية. وبعد حصوله على الاجازة والموافقات الامنية.. طلبوا منه أن لا يبيع الكتب الدينية. في تلك الايام كانت اسعار الكتب مرتفعة وكان المثقفون .. يعانون من محدودية رواتبهم وهذا ما دعا السيد (بسام) الى اعتماد نظام الاعارة فكان صاحب اول مكتبة اهلية في العمارة تعتمد هذا النظام، الذي افاد الطلبة الجامعيين كثيراً بسبب رخص الاعارة، وقال الاديب محمد قاسم الياسري بأنه قرأ أكثر من خمسين كتاباً بهذه الطريقة.

كتب الاستنساخ

وحين سألت السيد (علاء بسام) عن الكتب المستنسخة واهميتها .. اجاب: لقد أدت كتب الاستنساخ دوراً كبيراً في توصيل المعارف.. فقد اعتمد اغلب المثقفين على الكتب المستنسخة، التي كنا نجلبها من بغداد واغلب الكتب التي كنا نبيعها كنا نحصل عليها من مكتب (الراوي)، لصاحبها (باسل الراوي) احياناً على نسخ بعض الكتب المنوعة في منزلي وبيعها سراً ومنها: الشيعة والدولة القومية وكتاب الذات الجريحة والعراق لحنا بطاطو، ولكنني لم تكن لي علاقة بأشخاص من الريف كما موجود في التقرير ولم ابعث بكتب ممنوعة الى ايران، وفي تلك الفترة اتى اكثر من شخص مندس وحاول ان يحصل على معلومات، وكنت اتحسس هؤلاء الاشخاص واتعامل معهم بصورة حسنة، واتصل بأشخاص يؤثرون عليهم من اجل الا يكتبوا ضدي تقارير ممكن ان تأخذني الى حبل المشنقة.

المكتبة اتهمت بالترويج للكتب الممنوعة

الذي يعود له الفضل في وصول الكثير من الكتب النادرة الى ايدي القارئ الذي تلقفها كبديل ولكنها في الاغلب لا تصمد طويلاً وحروفها غير واضحة في بعض الاحيان وكان المثقفون من كبار السن يشكون منها، على الرغم من ان مكتباتهم البيتية تحتوي على عشرات الكتب المستنسخة وحين سألت (علاء بسام) عن المضايقات التي تعرض لها من قبل سلطة النظام السابق اجاب: انها كثيرة وفي بعض الاحيان لم اكن اعلم بها، ولكن بعد سقوط النظام الدكتاتوري عثرنا على كتاب في مديرية امن العمارة بتوقيع احد مسؤولي حزب البعث الفاشي في المحافظة والكتاب يتهمني بإستنساخ الكتب الممنوعة وبيعها الى ايران، ويشير الى إن لي علاقات مع اشخاص من الريف، وكانت مثل هكذا تهمة تسمى التآمر ضد النظام.

قلت لعلاء ولكن ما مدى صحة هذا الادعاء فقال: فعلاً كنت اعمل بسام) قائلاً: حين عرفنا بعودة (دار المدى) الى البلد استبشرنا خيرا ، وفعلاً وجدنا فيها عناوين مهمة ومتنوعة، وحين جلبنا عدداً كبيراً منها الى مدينة العمارة نفدت الكتب خلال اسبوع واحد وقراء كثيرون يشكرون الاستاذ فخري كريم لدعمه الثقافة العراقية الجديدة وتوفير فرصة الاطلاع على كتب كان الاطلاع عليها حلماً لهم، وحين سألته عن الاسعار قال: ان الاقبال على هذه الكتب يومي والقارئ لا يبالي بإرتفاع اسعار بعض الكتب.. خاصة ان اغلب المثقفين من الموظفين، الذين ازدادت رواتبهم في الفترة الاخيرة واضاف: ولكننا نطمح الى تخفيض اسعار بعض الكتب في المستقبل. الدكتور (مؤيد فيصل) احد القراء الذين اشتروا اعداداً كبيرة من كتب (دار المدى) قال: اننا نحتفي بهذه العناوين الفنية، التي وفرتها (دار المدى) ونشكر المسؤولين عن توفيرها للقارئ العراقي.. وحين سألت الدكتور (مؤيد فيصل) عن رأيه بمكتبة التفكر، اجاب: استطيع ان اشبه هذه المكتبة في زمن الدكتاتور بالماء الصافي، الذي يحس الانسان بنشوته.. مقابل الماء العكر الذي كانت توفره ثقافة النظام. واضاف: لا توجد مكتبة اتردد عليها غير هذه وبعد سقوط الدكتاتور زاد هذا الماء صفاءً. ثمة خصلة بصاحب المكتبة وهي انه يمنحنا الكتب بمواعيد مؤجلة في تسديد الديون، ويهدي لنا بعض الكتب مجاناً في بعض الاحيان.

وهذا نابع من وعيه وحرصه على نشر الثقافة لدى ابناء مدينة العمارة، كانت هذه شهادة من قارئ متميز في زمن عادت فيه الكتب الحديثة على الرفوف، وبدأت تختفي كتب الاستنساخ والرقابة الدكتاتورية وانا اتجول في مكتبة التفكر شاهدت كتباً دينية واخرى فلسفية وروايات ودواوين شعر تختفي خلفها عبير الثقافة، الذي لم يكن من السهل تنفسه في زمن الدكتاتور، خاصة في المدن الجنوبية.

عن دار (المدى)

مكتبة (التفكر) هي المكتبة الوحيدة في العمارة، التي يمكن ان يجد القارئ فيها كتب (دار المدى). عن هذا الموضوع حدثنا (علاء